على هامش ذكرى المعرى

# «داعى الدعاة» مناظر المعرى

للدكتور محمد كامل حسين

— ٣ —

استجاب ابن صالح المرداسى صاحب حلب دعوة المؤيد؛ فدخل المؤيد حلب ومعه خزائن الأموال والسلاح والخلع ومكث مدة يستريح ويدبر أمر ما هو مقدم عليه، ثم أخذ يرسل الكتب إلى أمراء العرب والأكراد يستميلهم إليه وإلى المذهب الفاطمى ويدعوهم للقيام لنصرته ضد طغرلبك؛ فاستجاب له بعضهم مثل ابن مروان صاحب ديار بكر وابن الأحزم الخفاجى صاحب الكوفة وابن قائد صاحب واسط ووعدوه جميعاً بإمداده بالجند كما أقاموا الدعوة فى بلادهم باسم المستنصر الفاطمى، وقد حفظ لنا المؤيد فى سيرته نص رسائله إلى أمراء العرب وجوابهم له مما يجعل « السيرة المؤيدية » وثيقة تاريخية لها قيمتها لمن يدرس العالم الإسلامى فى القرن الخامس من الهجرة

سار المؤيد ومعه خزائنه وجيوش ابن صالح حتى بلغ الرحبة حيث البساسيرى وجيوشه، وخرج البساسيرى ومعه أمراؤه للقائه، وفى ذلك يقول المؤيد « إلى أن لقينا أبو الحارث البساسيرى والعسكر البغدادى على رحلتين من الرحبة، وإذا هم قد ضربوا مصافهم وضرب خيلنا مصافه؛ فرأيت العسكر تلاحق ميمنة نحو الجبل وميسرة طرف الفرات، وسمعت الأبواق تخرق الحجب بالأصوات، ورأيت أقطار الهواء كأنها صبغت حمراء وصفراء من أصباغ الرايات، ودخلنا الرحبة دخولاً عليه من آثار السعادة وسم، وتجاوزناها إلى شاطىء الفرات فنصبنا الخيام ووسطت جمعاً جمع كل قاطع زقاق، وكل جلال من الناس ودقاق، تراموا إلى تلك البقعة من كل آفاق تركى وكردى وعجمى على اختلاف الجنس وعربى من كل طامع ذى ناب من الطمع حديد »

أخذ المؤيد بعد ذلك العهود والمواثيق على الأمراء، وخلع عليهم الخلع الفاطمية النفيسة التى لم يشاهدوا لها مثلاً، ووهب كل فريق نصيبه من الأموال؛ فكان بعضهم يأخذ نصيبه شاكراً، وبعضهم كان يستقل القدر يرده طمعاً فى المزيد، وتذمر أكثر الجنود وطالبوا بزيادة العطاء، وانتشر دعاة السوء بينهم، فحاول المؤيد أن يرضيهم بالحسنى فلم يوفق. وأخيراً اضطر إلى أن يأنبهم وأن يسامحهم باليمين التى أقسموها بين يديه

---

قلنا الصوفية فلا نعنى بهم هؤلاء وإنما نعنى بهم رجالاً من الأصفياء الأبرار، أولى النفوس الزكية والتفكير الحر، القائلين بوحدة الوجود

ولكن الأستاذ خشبة قد أبى ضميره المدفوع إلا أن يخلط هؤلاء بهؤلاء، ويجعلهم كلهم فئة واحدة، ويوسمهم ذماً وثلباً، لا سيما القائلين بوحدة الوجود، فإنه قد شدد عليهم النكير، وشنع عليهم قولهم بوحدة الوجود كل تشنيع، وعبر عنهم بالأنجاس، ولم يستثن منهم أحداً حتى الجنيد وأمثاله ممن تقدم عليه أو تأخر عنه. ولم يكتف بذلك حتى أخذ يذكر قراء الرسالة بما كتبه علماء الدين فى الماضى من ذمهم وتوهينهم، كأن ذلك كأقوال القدماء من فلاسفة اليونان، شىء لا يعلمه أحد إلا الأستاذ خشبة

ومما يدعو إلى الحيرة والعجب، أننا لم نر فى الأولين ولا فى الآخرين من اتهم الصوفية بأنهم إباحيون يطلبون اللذة الجنسية الخسيسة فى جميع أحوالهم، حتى جاء الأستاذ خشبة فافتأت عليهم هذا الباطل الذى ليس فوقه من باطل

إن الكلمة الأخيرة من الأستاذ خشبة قد هتكت لنا ستار ضميره، وكل ما قاله عن رسائل التعليقات يدل دلالة واضحة على أنه لم يكن ناقداً، بل كان مشوهاً ومشنعاً، فهل كان هذا منه بدافع من تحمسه الدينى، أو كان بدافع آخر. وإلا فليس من آداب البحث والنقد، ولا من المعقول، أن يهرف (!) برسائل التعليقات كل هذا (الهرف!) من دون داع إليه

وآخر ما نقول، هو أن الرصافى إنما يكتب للحقيقة، لا لأغراض أخرى، فإن أصاب فلله المن والفضل، وإن أخطأ فأجره من الله مأمول، وعذره عند كرام الناس مقبول.

(الرصافى)

وأظهروا أن الأمر إنما هو أمر الدين قبل كل شيء ؛ فعادوا جميعاً يعتذرون إليه وجددوا اليمين بين يديه ، وبعد أيام دعا أبا الحارث البساسيرى وخلع عليه وقرأ عهده على الناس فى يوم مشهود . ثم علم المؤيد أن نور الدين بن مزيد الأسدى وهو رجل العرب إذ ذاك وأكبر أمرائهم قد نقم على طغرلبك ، فانتهز المؤيد هذه الفرصة وكاتبه ليحثه على اللحاق به والانضمام إليه ؛ فذهب ابن مزيد إلى الرحبة ومعه جماعة من العلماء والأمراء ، وأخذ يفاوض المؤيد فى شروط الانضمام إليه ومحالفه معه ، كما أوعز ابن مزيد للعلماء بمناظرة المؤيد أمامه فى بعض المسائل الدينية والمؤيد مضطر إلى أن يصطنع الصبر ، وأن يداهن ابن مزيد ومن معه ، حتى قبل ابن مزيد بعد لأى أن يقسم يمين العهد بين يدى المؤيد ؛ فكتب المؤيد له العهد ولقبه « بالأمير سلطان ملوك العرب سيف الخلافة صفى أمير المؤمنين » ، ومع ذلك كله أخذ ابن مزيد يطالب المؤيد بأمور من شأنها أن تقسم الجيش وتبعد ابن صالح والمؤيد يقابله بشيء من المكر والدهاء ، ويحاول أن يسعى بين ابن صالح وابن مزيد ، ولكن سعيه ( كان سعى امرىء بين ضباع تهارش ، وذئاب تتجارح وتتحارش » فالجيش كما قلت كان من أجناس مختلفة ومذاهب متباينة تدب فيه روح التشاحن والتباغض ، مما جعل المؤيد يصبح ويمسى فى التوفيق بينهم ، وفى ذلك يقول المؤيد « وكنت أصبح وأمسى فى أثواب من انقطعت به الحبال ، وضاعت على يده الأموال ، وضاقت به من الهم السهول والجبال ، غير أنى أظهر فى خلال ما أقاسيه جلداً ، ولا أشعرت بحزازات صدرى أحداً ، وازداد الأمر سوءاً بورود نجدة من دمشق من بعض الأمراء الكلبيين الذين سرعان ما ضجوا وتذمروا زعماً منهم بأنهم جردوا على أن يشهدوا جيش القبائل العربية خارجاً عن جماعة الأتراك والأكراد ، فاضطر المؤيد إلى أن يغريهم بالأموال الجزيلة ، وأن يضاعف عطاءاتهم ، فساروا مع باقي الجيش إلى أن ظفروا بالانتصار على جيوش طغرلبك فى رمضان سنة ٤٤٨ في موقعة سنجار ، وهى الموقعة التى أشار إليها ابن حيوس الشاعر بقوله :

عجبت لمدعى الآفاق ملكاً وغايتـــه ببغداد الركود
ومن مستخلف بالهون يرضى يذاد عن الحياض ولا يذود

وأعجب منهما سيف بمصر تقام به بسنجار الحـــدود

وبانتصار المؤيد فى هذه الموقعة استطاعت جيوشه أن تدخل الموصل فى شوال ، واستطاع كذلك بعض الأمراء الذين ترددوا من قبل فى محالفة المؤيد أن يسارعوا بالانضمام إليه وشد أزره ، وأن يقيموا الدعوة فى بلادهم باسم المستنصر الفاطمى صاحب مصر

ولكن الجيش عاد إلى الانقسام وانفصل عنه بنو عقيل ، وتبعهم عدد كبير ، وانتهز طغرلبك هذه الفرصة فأسرع للانتقام منه ، كما أن الكندرى وزيره أخذ فى الاتصال بالأمراء الذين انضموا للمؤيد ، وأخذ الكندرى يخدعهم ويمنيهم بالولايات المختلفة فاستجاب له بعضهم ، ولما رأى البساسيرى حالة جيشه اضطر إلى الهرب ؛ فتشتت بذلك شمل جيش المؤيد الذى كان فى الرحبة ، وكان يظهر للناس جلداً ويشجعهم ويقوى من نفوسهم ويحاول لم شعثهم . أما فى قرارة نفسه فكان كما وصف نفسه ، «وأنا فى باطن أمرى متكفن متخبط أنتظر تخبط الأيدى لى من كل مكان ، وأجمع أمرى على أنه إن دهمنى ما أحذره رميت بنفسى فى جانب البر ؛ فلا أزال أضرب فيه إلى أن يحضرنى حاضر الجوع والتعب والعطش فأهلك ، وإن أدركنى طالب من جهة العدو أبيت أن أعطيه قيادى دون أن أقطع قطعة قطعة تفادياً من أن أقاد إليهم حياً» . وأمر المقربين إليه بالابتعاد عنه ، أو الهرب من الرحبة خوفاً عليهم من سطوات العدو . وأخيراً اضطر المؤيد نفسه إلى أن يهرب من الرحبة ؛ فدخل حلب سنة ٤٤٩ ومكث بها يترقب ويكاتب الأمراء والقواد ، وفى حلب ناظر المعرى فى مسألة تحريم أكل اللحوم ، وهى المناظرات المتداولة المعروفة . وسنتحدث عنها فيما بعد

أخذ المؤيد فى إرسال الرسائل للأمراء يستميلهم إليه مرة أخرى ، ويمدهم النصر على أعدائهم ، وكان على صلة بالبساسيرى الذى لم ييأس ، بل جمع إليه بعض الجند ، وكاتب المؤيد يطلب مقابلته دون أن يفطن أحد إلى هذا اللقاء ، فتقابلا فى دير حافر ، ( وهى قرية بين حلب وبالس ) ، واتفقا على الخطة التى يجب أن يسيرا عليها حتى ينجح مسعاهما . ثم جاء إلى المؤيد وفد من قبل إبراهيم بن نيال يطلب فى الظاهر الخضوع لطغرلبك ، وفى الباطن يطلب من المؤيد أن يخلع على ابن نيال ، ويلقبه إذا غدر

بطغرلبك ، وشايع المؤيد وملك البلاد باسم الفاطميين ، فرحب المؤيد بذلك ، وأمر البساسيرى بالرجوع إلى الرحبة ، وتمت المؤامرة بالنجاح ، إذ استطاعت جيوش البساسيرى أن تدخل بغداد سنة ٤٥٠ هـ . وأن يدعى على منابرها باسم المستنصر الفاطمى ، وأن يأمر القائم بأمر الله العباسى ، وأن يصلب ابن المسلمة وزيره عدو المؤيد القديم الذى أرسله الخليفة العباسى لأبى كاليجار البويهى لإخراج المؤيد من شيراز ، وقد أظهر المؤيد شيئاً من الابتهاج بصلب هذا الرجل ، وظهر ذلك فى شعر المؤيد بقوله :

وعبوس يوم لابن عباس به  لاقى الردى متشخصاً لعيانه
إذ بات يعثر فى ذيول مذلة  يمتاض ضيق الحبس عن إيوانه
وأرى على الصارى ابن مسلمة الذى
ضجت فم الإسلام من عدوانه
فسقى الإله سجال رحمته ثرى  قبر ثوى فيه أبو عمرانه
إن ابنه كم من مقام قامه  صعبا يثبت جنانه ولسانه
فى رفع رايات النبى وآله  وضرابه لعداتهم وطعانه

واتجه المؤيد إلى مصر ، وفى الطريق قابله صاحب البريد ومعه أمر من الوزير المغربى بأن يعود المؤيد إلى حلب ؛ فدهش المؤيد من هذا الأمر وأخذ يفكر فيه ، وأخيراً استقر رأيه على أن يواصل سيره إلى مصر ، ولكنه فوجئ بأمر ثان كالأول فلم يأبه به وواصل رحيله . فإذا بأمر ثالث مما جعل المؤيد فى حيرة من أمر هؤلاء الذين يحاولون منعه من دخول مصر بعد هذه الخدمات التى أداها لهم ، وبعد أن نشر دعوتهم وبسط سلطانهم فى قلب أملاك العباسيين ، بل بعد أن أزال سلطان العباسيين من عاصمة ملكهم وبعد أن أمر الخليفة العباسى نفسه ، وبالرغم من وصول هذه الأوامر إليه فقد أصر على دخول مصر وخشى أن يتخذ فى سيره إلى مصر الطرق المألوفة فيفاجأ بمثل هذه الأوامر ، لذلك عمد إلى أن يتخذ طريقه فى المجاهل ، وسار إلى مصر متنكراً فى رحلته إليها ، كما جاءها متنكراً فى رحلته الأولى ، فما شعر به أحد حتى رأوه على باب القاهرة فأسقط فى يد الوزير ولم يدر ماذا يصنع .

يخيل إلىّ أن المؤيد لم يجد من الوزير المغربى ما كان أهلاً له وما يجدر بمثله ، ولكن الوزير اضطر إلى أن يكل إلى المؤيد أمر الدعوة ، وبذلك أصبح المؤيد حجة الدعوة وداعيها المطلق ولقب « بالرئيس الأجل عصمة أمير المؤمنين » . وبذلك وصل المؤيد إلى ما كانت تصبو إليه نفسه وبلغ أعلى درجات الدعوة الفاطمية فقد أصبحت مرتبته تلى مرتبة الإمام مباشرة ، ولكنها مرتبة روحية قبل كل شىء ، وليس لصاحبها أن يتدخل فى شئون السلطة التنفيذية

لا أستطيع أن أحدد المدة التى مكثها المؤيد فى هذه المرتبة ولم يحدثنا أحد من المؤرخين عنه ، ولم يحدثنا هو نفسه عن حياته بعد سنة ٤٥٠ هـ ، وكل الذى وصلنا أن الوزير عبد الله بن يحيى ابن المدبر ( الذى تولى الوزارة مرتين إحداهما فى سفر سنة ٤٥٣هـ وصرف عنها بعد شهور ، والأخرى فى ربيع سنة ٤٥٥هـ وتوفى عنها فى جمادى الأولى من هذه السنة ) قد طلب إبعاد المؤيد من مصر ونفيه إلى الشام فسير المؤيد إلى الشام وعاد إلى مصر بعد مدة ، ولا أدرى متى كان ذلك ، ولا أشك أن المؤيد أصبح له بعض النفوذ فى مصر حتى خشى الوزير سطوته ونفوذه ، فاقترح بإبعاده عن البلد ثم نرى بعد ذلك شيئاً من نفوذ المؤيد إذ تولى صنيعته وكاتبه ونائبه فى ديوان الإنشاء أبو الحسن بن الأنبارى الوزارة سنة ٤٥٧هـ ومع ذلك كله فحياة المؤيد بعد سنة ٤٥٠هـ غامضة أشد الغموض إلا ما كان من أمر علاقته بقاضى قضاة اليمن لمك بن مالك الذى جاء مصر على رأس وفد من علماء اليمن ومكث فى دار المؤيد خمس سنوات وأخذ عنه كل علوم المذهب الفاطمى ، وعاد إلى بلاده يبشر بآراء المؤيد وعلومه ، وسنتحدث عن ذلك فيما بعد . ولا تختلف المصادر فى أن المؤيد توفى سنة ٤٧٠هـ ودفن فى دار العلم بالقاهرة وصلى عليه إمامه المستنصر الفاطمى .

( يتبع )

دكتور
محمد كامل حسين
بكلية الآداب بالقاهرة